قضية اللغـة العربية

للأستاذ أحمد خاكى

١ — التعلم واللغة : يذهب الجمهرة من المربين فى العصر الحديث الى أن الغاية من التربية ينبغى أن ترمى إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التى تتطلبها حياته الحاضرة والمستقبلة ، والتى تقتضيها الحضارة وطلب الرزق . بل لقد آمن الكثير منهم بأن الحضارة فى نفسها تقوم على المهارة فحسب ، وأن العصر الحالى يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآلية التى تلزمنا بها حاجات الحياة ، وأن التقدم رهين بما تحسنه الجماعة من أنواع المهارة ، وأننا لن نبلغ المثل الأعلى الذى يحدونا الى التقدم حتى نتقن أكبر عدد منها

ويذهب أصحاب اللغات الى هذا الرأى فيما يتصل بتعليمها . فقد أمَّن هؤلاء على كل ذلك وزادوا عليه أن تعليم اللغات هو فى نفسه ضرب من ضروب المهارة التى يجب أن يكسبها المتعلم حتى يوفق بين نفسه وبين البيئة التى يعيش فيها . بل هو لا بد مرغم على كسبها اذا هو تطلع الى لون من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذى اعتاده آباؤه وأجداده . فاللغة عند هؤلاء شبيهة بالمشى أو الجرى أو تناول الطعام أو احسان الرماية أو الطيران . فهى لا محيص للناشىء من أن يتلقنها فى بيئته ، بل هو مجبول على تلقنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد ، وأن اتصاله الفكرى مع من حوله لا يستقيم الا اذا تلقن لفنهم كتابة وقراءة وحديثاً . واللغة فوق ذلك مهارة سامية جديرة بالإحسان لأنها تتحمل فى أطوائها تراث المدنيات التى تحدرت الينا ، ولأنها — اذا كانت أجنبية — مفتاح لمدنيات أخرى تتلفلت فى تاريخ البشرية نفسه

واللغة بعد ذلك دليل على التقدم الفكرى لأنها الوسيط الذى تتجسد فيه الأفكار والآراء . وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رموزاً أطلقت على المعانى التى تتدفع فى نفس الإنسان . وهي التى تسيطر على موارد تلك المعانى ومصادرها . فكل كسب لتلك المهارة التى نسميها « اللغة » انما هو تحديد لغذائنا الفكرى . وكل تحديد لتفكيرنا انما هو فتح جديد للمنطق والفلسفة بل فتح لسائر العلوم

فاذا كانت اللغة تفيض بالمفردات التى تصف كل فكرة دقيقة من تلك الأفكار ، وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كانت كفيلة بأن تصف المعانى التى تتثال فى خواطر المتحضرين ، كان ذلك دليلاً على كفايتها فى مسايرة التقدم العقلى . وليست قضية اللغة عندنا قضية ألفاظ فحسب ، ولا هى قضية تراكيب ، إنما القضية عندنا فى كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب . فهل استطاعت هذه أن تساير الحضارة الحديثة ؟ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا ؟ ذلك ما نشك فيه

ونحن نشك فى شىء آخر غير ذلك . إنه لا يمكن لغة أن تساير الحضارة أو الثقافة إلا إذا كانت مرنة تتسع لكل معنى حديث . وتلك المرونة التى تظهر بجلاء فى لغة كالانجليزية قد فقدت مكانها فى لغة كالعربية . وهى قد فقدت مكانها فى لغات أخرى قبل لغتنا لأنها قعدت عن أن تماشى الحضارة فى تقدمها . وأخص ما تمتاز به الانجليزية هو ذلك الاستيعاب الذى يظهر في كل وجه من وجوهها ؛ فهى قد استوعبت ألفاظاً من كل قطر حلت فيه فئة من الانجليز . وألفاظها تواتى المتحدث بها فى كل موضوع يطرق ، لكننا نشكك كثيراً فيما إذا كانت العربية والانجليزية سواء . فالعربية غير مرنة ؛ وهى لغة تقليدية تتولى عن الألفاظ الدخيلة ؛ وقد بدأت تساير الحضارة الحديثة منذ وقت قليل لما يكتنف لتغذيتها بألفاظ تطلق على المعانى التى تتجدد فى كل ساعة من ساعات الحضارة

لم يكن لنا أن نذكر كل ذلك لولا أننا نؤمن بأن فى اللغة استعداداً لقبول كثير من الإصلاح . ولعل أفعل إصلاح اللغة أن نبدأ بتفهم طرق التدريس التى من شأنها أن تجعل اللغة لغة أفكار ومعانٍ قبل أن تكون لغة ألفاظ ومفردات ، وتفهم طرق التربية التى تكسبها مرونة اللغات الأخرى . ويستطيع المعلمون أن يتغلبوا على تلك العقبات التى يلقونها اذا هم وجدوا أمة من أهل الرأى تجاهد معهم فى هذا السبيل . على أننا سوف نكتفى فى مقالنا هذا بذكر وجه آخر من علاقة اللغات ، ثم بتحديد أغراضنا من دراستها . وسوف نعالج فى مقال آخر الوسائل التى نراها

٢ — وصدة اللغة : وفى كل الذى أسلفنا أكثر من دليل على أن عنايتنا باللغة ينبغى أن تحل عندنا المكانة الأولى بين مختلف

المواد التى نعلمها . فهى حقيقة بالتقدير إذا تحدثنا عن أى مثل أعلى عالى ؛ وفى دراستها توحيد للمعنى السامى الذى ما زال يلهب بخيال الانسانية ، والتقدم الفكرى رهين بالتقدم اللغوى ، ولأن اللغة أساس صالح لتلك المواد ، ولأنها تتحكم فى تلقينها وفى تلقها ، فانا نرى أن إصلاح التعليم فى مصر رهين باصلاح أساليبنا فى تعليم اللغة العربية وفى تغيير وجهتنا فيما يختص بالأغراض التى نرمى إليها

بل اللغة العربية متصلة وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التى نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى . وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرتنا إلى مجموعات متوافقة من الأفكار والمعانى استطعنا أن نرى كيف تحدد اللغة تفكيرنا ، وكيف تواتينا القدرة على تفهم تلك المواد إذا كانت اللغة مهارة مكسوبة أحسناها . فاللغة فى مفرداتها وصيغها تكوّن وحدة عامة متصلة الحلقات مشتبكة الأطراف ، وهى فى نفسها نتيجة لنماء العقل ونشاط التفكير . وليست مفردات اللغة كما قدمنا إلا رموزاً للأفكار التى يلتف بعضها حول بعض فى حياة الانسان العقلية ، والتى تتألف حولها كثير من شعاب الدوافع . وحين يدرج الناشئ فى السنين الأولى من طفولته يكسب كثيراً من تلك الأفكار التى يحاول أن يعبر عنها ، فما تزال حائرة تتردد فى نفسه حتى تستقر فى تلك الرموز التى تواضع عليها الناس ، وتصبح بعد ذلك مادة للحديث والتفكير والكتابة ، وتصبح سبيلا إلى تفهم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك

ولعل الطفل فى حياته اللغوية يمثل الانسان الأول فى كسب اللغة واصطناع ألفاظها ، فهو يتدرج فى تعلمها من المحسوسات الى المعقولات ، وهو يحسن كل الاحسان أسماء المرئيات ، لكنه يعانى غير قليل من الجهد فى تفهم المعانى . وقد مر الانسان الأول فى مثل عصر الطفولة حينما كان العالم نفسه طفلا ، وحين دفعته الحاجة الى أن يتعلم الأسماء كلها . وتعقدت اللغة فى أطوار الانسانية حتى انحدرت الينا وهى على ما هى عليه من التعمق والاغراق ؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضى نصيباً كبيراً من الحسّ المرهف والتفطن الدقيق

فلغة الإنسان إذن وحدة فى ذاتها تتألف من شتات من الجزئيات ، ولغته الأصلية هى التى صاحبت تكوينه العقلى . منها يستمد أفكاره ومنها يكون صوره العقلية ، بل هى التى توحى إليه ما توحيه الكلمات من حب وبغض وسرور وحزن . فى ألفاظها كل المعانى التى تجيش بصدره ، وفى أعطافها ما يحرك قلبه ويهز فؤاده

ولأن اللغة وحدة فى ذاتها تجد بين لغة الإنسان الأصيلة وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من الوشائج والأسباب ، فلا يستطيع متحدث أن يعالج الكلام عن الثانية إلا إذا بدأ بالأولى ، ولا يستطيع متعلم أن يقرب لغة أجنبية حتى يتخذ الأصيلة عوناً على تفهمها . فاللغة الأصيلة هى السجل الذى تنتظر فيه مراحل تفكيره ، وهى المرآة التى تنعكس عليها حياته العقلية والحسية فى وقت معاً

من أجل ذلك كانت اللغة الدخيلة عالة فى أفكارها ومعانيها على اللغة الأصيلة ، وكان حرياً بها أن تكون كذلك عند الناشئين ؛ فالحق أن الأفكار والمعانى لا تعرف ألفاظاً تحدها فى موضع ضيق تتقيد به ؛ ولأن اللغة الأصيلة نتيجة لتفكير الإنسان ، ولأنها ثمرة لتقدمه العقلى كانت خليقة أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية كما كانت الأساس فى الدراسات الأخرى ، وخليقة أن تمتاز بالجلاء والوضوح ، وأن يعنى بها المربون أول شىء لأنها تتدخل فى تعلم اللغات الأخرى وفى إحسان العلوم ، بل فى نمو الإنسان وتفكيره

ولقد ذهب الى هذا الرأى كثير من الذين يحترفون دراسة اللغة وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشوف العلم الحديث ، وكانت الجمهرة من علماء التربية يرون منذ بضع سنين أن اللغات منفصلة ، وأن الإنجليزية مثلاً لا تستقيم إلا إذا حبسنا تفكير الناشئ عن العربية فى دروس الإنجليزية . وقد كان يشوب ذلك كثير من الخطأ ، فلم يكن يعترف عقل المتعلم بتلك الحدود المفروضة التى ضربت عليه ، وقد كان يخترق تلك الحدود ، وكانت اللغة العربية تلتقى بالإنجليزية فى تفكير الطفل مهما حاولنا المباعدة بينهما . وقام فى السنين الأخيرة علماء مثل الدكتور (وسّت) صاحب الطريقة المشهورة يعترفون بتلك الصلة ويستعينون بها فى تعليم الانجليزية . وحدث على أثر ذلك انقلاب سريع فى أساليب التعليم عندنا ، وغدا للعربية وزن فى تعليم الانجليزية فى الست السنوات الدراسية الأولى

وعندنا أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية . وإصلاح مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم ، ولا أساليب الدراسة فحسب

بل لابد له أن يتأصل فى مادة التفكير التى يتغذى بها التلاميذ . إصلاح مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء والفلسفة والمنطق ، وكذلك سوف تستقيم به طرق التدريس التى نجاهد فى إدخالها على اللغة الانجليزية . ولعلنا لا نغلو كثيراً إذا قلنا إنه أساس كل إصلاح آخر

٣ — الأغراض من تعليم اللغات : ولأن يكون كلامنا محدداً ، ولئلا نخلط بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة ، نرى أن نعالج الغرض الذى ينبغى أن نلتزمه فى تعلم اللغة العربية والغرض الذى ينبغى أن نلتزمه فى تعلم اللغة الانجليزية

فإذا كان بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات الفكرية ، فإن بين الاثنتين فروقاً تحدد السبل التى نتخذها فى تعليم كل منهما . فللغة كما قدمنا آثار تختلف على حياة الإنسان لها أثر عقلى عميق يكاد يحكم نمو إدراكه وتطور تفكيره . ولها بعد ذلك أثر حسى يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التى يكسبها من الشعر والأدب . ثم إن لها أثراً عملياً أو نفعياً يغير منه فى حياته كأى مهارة أخرى . وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هى التى تختلف على متعلم اللغة إذا أحسنت تنشئته على الأصول النفسية التى جهد فى استنتاجها الذين أوتوا العلم من المعلمين والمربين .

ونحن فى حديثنا عن اللغات يجب أن نفرق بين هذه الآثار وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية . أما اللغة العربية فإنه يتمثل فيها كل الآثار التى ذكرنا . لها أثر عقلى يصاحب الإنسان عند النشأة الأولى ويلازمه فى كل طور من أطوار حياته ، ولها كذلك أثر حسى يمحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من ألوان السرور ، ولها أثر ثالث عملى لأنهما وسيلة الكتابة والحديث بين الأفراد والجماعات . أما أثر اللغة الأجنبية عندنا فهو نفعى أو قل عملى . حقاً قد يكون لها أثر عقلى إذ تتدخل فى تربية الانسان ونمائه ، وقد يكون لها أثر حسى إذا أحسن تعلمها . ولكن وجهها النفعى أوضح وجوهها ، وانما يتعلم المرء اللغة الأجنبية لتكون صلة بينه وبين فروع المعرفة التى اتسعت لها ، وحسبه أن يحسن قراءتها . ولعلها تصبح مادة زاخرة توحى اليه العواطف ، وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلات ولكنها على الحالين لن تدرك ما تبلغه لغته الأولى التى درج عليها والتى كانت أقرب الى عقله وقلبه ووجدانه .

فاللغة الأصيلة واللغة الدخيلة تختلفان فى تقديرنا اختلافا شاسعاً . الأولى صاحبة الأثر العقلى الذى يدفع بتفكير المتعلم الى نواحى التقدم ، والثانية تستمد وجودها كأداة للتفكير من اللغة الأولى . واللغة الأصيلة ذخيرة تتجلى فيها آيات الجمال بما فى تراثها من أدب وحكمة ، وتنبلج فيها بدائع الشعر بما تتحمله من وحى وإلهام . أما الثانية فلن تبلغ هذا الأثر الا اذا أحسنها المتعلم كل الاحسان ؛ وليس يبلغ ذلك الا الخاصة الذين لا يقصون للعلم فى حسبان . وهى عند كافة المتعلمين بعيدة عن نطاق الجمال والالهام غير قريبة من مواطن التفكير الدقيق أو جادة التفطن والتفصيل . واللغة الأصيلة واللغة الدخيلة بعد كل ذلك جديرتان أن نحسنهما قراءة ومطالعة ، لأن احسان قراءة الأولى واجب حتم ، ولأن قراءة الثانية هو سبيل الاتصال بحضارة أصحابها .

وفيما أسلفنا من حديث عن آثار اللغات مواضع نتعرف منها الغاية من تعلم اللغات كل منها على حدة ، فالمطالعة أو قل القراءة المستوعبة هى الغاية من تعلم اللغة الأجنبية ، لأن إتقانها هو السبيل الى فهم ما يكتب فيها ، ولأننا فى تعليمنا اللغة الأجنبية نرمى الى أن نفتح للمتعلم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها . نحن نتعلم اللغة الانجليزية لنقرأ مؤلفاتها ، ونحن نحسن الفرنسية لكى نلم بحضارة الفرنسيين ؛ وليست الفرنسية ولا الانجليزية إحداها ولا كلتاها بضرورة لازمة لحياتنا العقلية أو لتربيتنا النفسية ؛ واذن فيجب أن تدور جهودنا فى تعليم إحدى هاتين اللغتين حول تلك الغاية المثلى : يجب أن تدور حول المطالعة لأنها الغاية النفعية التى تحدثنا عنها . وليست الكتابة ولا الخطابة ولا تذوق الأدب بما فيه من قصص وتمثيل من شأننا فى تعليم الانجليزية ، فاذا جاء كل هؤلاء فانما يأتى بعد المطالعة لا قبلها

أما اللغة الأصيلة — وهى العربية عندنا — فينبغى أن تكون الغاية من تعليمها فوق ماذكرت . إن القراءة جزء من الغاية التى ننشدها اذ نعلمها . نحن نعلم العربية لنخرج مفكرين يحسنون تصور الكلام ويجيدون التعبير عما فى نفوسهم . بل يجب أن نعلمها حتى يتذوقوا التراث الأدبى الذى تزخر به اللغة نفسها . واذن فدراسة العربية ينبغى أن تكون تدريباً فكرياً وتدريباً نفسياً وتدريباً عملياً أيضاً ، وتتشعب هذه الأغراض وتتعقد